

حسن الخلق - ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وللعنة الدائمة على أعدائهم أعداء الدين.

يَفْقَهُوا قَوْلِهِ [طه: 25 - 28].

عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال : «إن إلّا عز وجل جعل محسن الأخلاق وصلة بينه وبين عباده، فحسبُ أحدكم أن يتمسك بخلق متصل باهٰ تعالى». [نزهة الناظر، الحلوازي: 52].

الحادي في هذه الجمعة من هذا الشهر المبارك، شهر ربيع عن الأخلاق، في زمن كثرت فيه الأزمات الأخلاقية في المجتمعات وعلى جميع الأصعدة، الاجتماعية والأسرية وغيرهما. مما أحوجنا إلى الرجوع إلى ما كان عليه الإنسان منذ أن خلق، فالإنسان يولد على الفطرة، بمعنى ما أراده الله عز وجل.

ورد عن أبي ذر الغفارى أنه قوله : كان الناس ورداً بلا شوك، فأمسوا شوكاً بلا ورد. وهي كلمة جميلة من هذا الصحابي الجليل ربب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب (ع) فهو خريج هذه المدرسة المحمدية العلوية. فالناس يولدون على الفطرة، والفطرة هي الورد، ولكن إذا اختلط الإنسان بالمجتمع الملئ بالأزمات الأخلاقية البعيدة عن الإنسانية التي كانت ولا زالت وسوف تستمر، إلا من رحم ربى، فإنه يصبح شوكاً بلا ورد. فالإنسان إذا ما تسلح بسلاح الأخلاق كان بعيداً عن هذه الأزمات.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع) :

«يُعَيِّبُ النَّاسَ كُلَّهُمْ زَمَانًاٰ وَمَا لَزَمَانًاٰ عَيْبٌ سُوَا نَا

نعم زماننا والعيش فينا ولو نطق الزمان بنا هانا

وإن الذئب يترك لحم ذئبٍ ويأكل بعضاً عيناً»).

[الأمالي، الشيخ الطوسي: 178].

فالعيوب فيها نحن لا في الزمان، فالزمان طرف للفعل، إن كانت محسنة فهي من الإنسان، وإن كانت مساوية فمنه أيضاً، فالإنسان عندما يتبع عن القيم الإسلامية والإنسانية يعيش أزمةً أخلاقية.

فنحن اليوم يأكل بعضاً بشتى الطرق والوسائل والصور، ومن تلك الصور الغيبة، قال تعالى : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخْرِيٍّ مَيْتَانًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. [الحجرات: 12]. أما الذئب فلا يأكل لحم أخيه على ما هو عليه من وحشية وحيوانية.

ففي زماننا هذا، وفي كل زمان، كانت الحاجة للأخلاق الإنسانية حاجة ماسّة وضرورية كي يعود الإنسان لما كانت عليه فطرته لتحقيق السعادة، ولا سعادة بلا فطرة وأخلاق، لا في النفس ولا في الأسرة ولا في المدرسة ولا في أي مكان.

والمولود يولد على الفطرة كما تذكر الروايات الشريفة، ولذلك يجب أن يحرص الكبير على يقائه على فطرته التي ولد عليها، وهذه مسؤولية الأبوين والأسرة بشكل عام والمدرسة والمجتمع.

والسؤال هنا: ما هي الأخلاق التي ورد الحث عليها كما في الحديث الذي افتحنا به الكلام، وهي التي وصفها أمير المؤمنين (ع) بأنها وصلة بين العبد وربه؟

الجواب : إنها الأخلاق الحسنة التي تتجسد في شخصية المؤمن.

والأخلاق جمع الخُلُق، وهي حسن المعاشرة مع الناس، فلا هي معادلات رياضية ولا كيميائية ولا غيرها.

فمن الأزمات التي نعيشها اليوم، أنك تسأل عن البعض أصحابه، فتجده يتحلى بالخلق الرفيع، ولكن لو سألت عنه أسرته لوجوده بركاناً. فهو مع أصحابه وردة، ومع عياله شوكه، حال أن حسن الخلق لا بد أن يكون على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات، لا في جانب دون آخر. وهذه الأخلاق هي التي تكون صلة بين العبد وبين ربها. والمنطلق الأساسي لجميع المجالات الأخرى هو البيت والأسرة.

كان لدى أحد الأئمة (ع) عامل يعمل في البيت، فدخل على الإمام (ع) فرأه مستلقياً على ظهره، وأطفاله يصعدون عليه وينزلون. فتعجب ذلك العامل الخادم مما رأى، وانبهر مما رأى من معاملة الإمام لأبنائه، فقال له الإمام : هكذا طلب منا. أي أن نتعامل مع الطفل بالرقة والرحمة.

ثم سأله الإمام (ع) : وأنت، ماذا تفعل مع أبنائك؟ قال: إذا دخلت البيت فالنائم يستيقظ، والواقف يجلس، من الرهبة التي يشعرون بها. فقال له الإمام (ع): خذ هذا الأجر على ما مضى من عملك، وما يأتي أيضاً، وانصرف. فأنت لا تستطيع أن تكون حسن الخلق مع الغير وأنت تتعامل بهذا الشكل مع أبنائك.

نلاحظ أحياناً أن بعض الآباء يشتكي ولده، ولكن لو سألنا عن كيفية تعامله مع ولده منذ أيام الصغر لما وجدنا لديه برنامجاً صحيحاً. فقد ولد هذا الولد على فطرته ورداً كما يقول أبو ذر، ولكنك جعلته يتحول إلى شوك، لأنك لم تحسن تربيته، فأنت السبب في ذلك.

نعم، هنا لك تأثير للمدرسة والمجتمع والبيئة، ولكن عليك أن تؤدي ما عليك من مسؤولية.

أما عن أهمية حسن الخلق، فإن حسن الخلق من أهم الصفات التي تمتاز بها الإنسانية وترتبط بالإنسان المؤمن على الأخلاق، وهي من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها.

يقول رسول الله (ص) : «الخلق الحسن نصف الدين». [بحار الأنوار، المجلسي: 385]. وعن الإمام الباقر (ع) : «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلفاً». [الكافい، الكليني: 99].

وقد جاء رجل أمام النبي (ص) فقال : يا رسول الله ما الدين؟ ف قال له: حسن الخلق. ثم قال له ثانية: ما الدين يا رسول الله؟ فقال: حسن الخلق. وهكذا قال الثالثة فأجا به النبي (ص) بنفس الجواب.

ومن المعروف أن النبي (ص) يخاطب الناس على قدر عقولهم، فتارةً يجيب هذا الأعرابي على مقدار ما لديه من عقل وإدراك، ويجيب الآخر بنفس الميزان.

إن الهدف من بعثة الأنبياء هو حسن الخلق، وإتمام مكارم الأخلاق، وهذا واضح وصريح. قال رسول الله (ص) : «إِنَّمَا بَعَثْتُ لِأَتُمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». [بحار الأنوار، المجلسي: 210].

فالأخلاق ليس وليدة اليوم، ولم تولد مع الإسلام، إنما كانت قبل الإسلام أيضاً، ولذلك يؤكد النبي (ص)

أنه جاء ليتمم مكارم الأخلاق، أي ليزيد عليها وبعدها ويحيي ما اندثر منها من الشرائع السماوية السابقة. وقد التفت العرب القرشيون وغيرهم حول النبي (ص) قبل البعثة لأنه كان يتميز بالصدق والأمانة، وهي من أبرز مكارم الأخلاق. وكذلك الأئمة (ع) مع ما كانوا يعيشونه من الضغوط إلا أنهم دخلوا قلوب الناس وهيمنوا على مشاعرهم بسبب حسن الخلق.

وهنا لك علاقة وثيقة أيضاً بين العمل العبادي وحسن الخلق، فمن عمل عملاً عبادياً ولم ينعكس على أخلاقه فعليه أن يراجع نفسه وحساً به.

فقد جاء أحد أصحاب الإمام الصادق (ع) إليه فسألـه : كيف أعرف أن صلاتي مقبولة؟ قال الإمام: هل تنهـاك صلاتك عن الفحشاء والمنكر؟ فقال: لا. قال : إذن لا قيمة لصلاتك هذه سوى إسقاط الواجب.

فالعمل العبادي فيه جانبان: جانب الامتثال، وجانـب التـواب. فالامتثال يـسقط التـكليف، أما التـواب فيـكون على أمر آخر، وهو حقيقة تلك العـبادة ومقدار ما يـنعكس منها على السلوك والواقع الاجتماعي.

وكذلك سائر الأعمال من حج وصوم وزكاة زيارـة الأربعين وليس هـنالـك انعـكـاس على سلوكـه وخلقه، فعليـه أن يـراجع نفسه.

والـحدـيث في هذا الصـدد طـويل، وسوف نـحاـول موـاصلـته في الأـسـبـوع الـقادـم، وآخـر دـعـوانـا أنـالـحمد لـربـالـعالـمـين، وصـلـى الله عـلـى مـحـمـد وـعـلـى أـهـل بـيـتـه الطـيـبـيـن الطـاهـريـن.